الفكر الصوفي والنزعة الفلسفية في كتاب المواقف والمخاطبات للنفري

د. إيمان محمد محمد عمران

مدرس الفلسفة الإسلامية

قسم الفلسفة وعلم الاجتماع

كلية التربية – جامعة عين شمس

المستخلص:

تسعى الدراسة إلى تأكيد أهمية كتاب المواقف والمخاطبات للنفري، ودوره المهم في التأصيل للتصوف الفلسفي، القائم على فكر القرآن الكريم والسنة النبوية.

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة بعض المفاهيم الصوفية التي أشار إليها النفري في كتابه، وكيف كانت حالات الوجد الخاصة به تعبر عن رؤيته الفلسفية تجاه الإيمان بالله، وجهاد النفس، وعرفان القلوب.

سعت الدراسة إلى التأكيد على دور النفري في نشر الفكر الصوفي المعتدل، الذي اعتمده النفري لنفسه، فكتاب النفري كان ترجمة حقيقية لتجربة صوفية شخصية، تفرد بها صاحبها.

أكّدت الدراسة على اعتدال النفري في تصوفه وأفكاره، مما جعلها قريبة من الوجدان الجمعي للأمة.

اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي، وقسمت الدراسة لعدة مباحث، انتهت إلى النتائج التي تؤكد إسهام النفري في التأسيس للتصوف الفلسفي الروحاني الموافق للعقلية المسلمة.

الكلمات المفتاحية:

الحلول، الفناء، القلب، الوحدانية، جهاد النفس

Abstract

The study seeks to confirm the importance of Al-Nafari's Book of Attitudes and Addresses, and its important role in rooting philosophical mysticism, based on the thought of the Noble Qur'an, Sunnah and Prophethood.

This study aims to address some of the mystical concepts referred to by Al-Nafiri in his book, and how his states of consciousness expressed his philosophical vision towards belief in God, self-strife, and gratitude of hearts.

The study sought to emphasize Al-Nafari's role in spreading the moderate Sufi thought, which Al-Nafari adopted for himself. Al-Nafari's book was a true translation of a personal mystical experience, unique to its owner.

The study confirmed Al-Nafari's moderation in his mysticism and his ideas, which made them close to the collective conscience of the nation.

The study adopted the analytical method, and the study was divided into several sections, which concluded with results that confirm Al-Nafari's contribution to the foundation of spiritual philosophical mysticism that conforms to the Muslim mentality.

key words:

Solutions, annihilation, heart, unity, jihad of the soul

مقدمة:

تأتي هذه الدراسة لترصد بعض الأفكار الفلسفية الصوفية التي تنتشر في كتب المتصوفة جميعًا، فالدراسة تهتم بالكشف عن الرؤية الفلسفية للنفري في تصوفه، من خلال كتابه المواقف والمخاطبات، الذي دوّن فيها تصوراته الصوفية، وأفكاره، فالنفري من أولئك المتصوفة الذين امتلكوا بعدًا فلسفيًا في كتاباتهم، وخطاباتهم التي كانوا يفصحون عنها دومًا، لكن أهم ما يميز النفري في صوفياته تلك اللغة الرامزة، الكثيفة الدلالة، فلغة النفري ليست لغة صوفية فقط، بل هي كذلك لغة أدبية، تمتلك الكثير من الأفكار العميقة التي تحتاج إلى التأويل بوصفها لغة صوفية أدبية، كما أن مواقف النفري ومخاطباته تمتاز كذلك بالإيجاز والتكثيف، الذي يمنحها غموضًا جاذبًا، يحتاج للتدقيق كي يستطيع قارؤها فك طلاسمها.

إن فلسفة النفري الصوفية فلسفة عميقة لكنها قريبة من الفكر الإسلامي العام، فلم تخرج فلسفته الصوفية عن معتقدات أهل السنة، فهو لم يقل بما قال بعض المتصوفة مثل: الحلاج أو ابن عربي من شطحات الحلول والاتحاد أو الفناء، بل جاءت رؤيته بما يتفق مع العقيدة الإسلامية، ويساير القرآن الكريم في وصفه للإيمان والحب الإلهي، لذلك وقفت الدراسة أمام رحلة النفري الصوفية، لتكشف عن بعض أفكاره التي راح يؤكدها من خلال مواقفه ومخاطباته، التي لم تخل من البعد الفلسفي الديني العميق، لقد سعت الدراسة للكشف عن التجربة الصوفية عند النفري، تلك التجربة التي توافقت مع التجربة الحضارية الإسلامية، فالتجارب الصوفية تعبر عن مدى التقدم الحضاري للأمم، ومدى سموها الفكري، الذي يأتي مترجمًا في فكر المتصوفة وكتاباتهم، وهذا ما برز بوضوح في تجربة النفري في كتابه.

تمثلت مشكلة الدراسة في محاولة الكشف عن مفهوم فلسفة التصوف عند النفري، ومدى تقاربها مع مفهوم التصوف الفلسفي في الفكر الإسلامي، ومعرفة أهم النماذج المعبرة عن شخصية المتصوف وممارساتها الصوفية، ومدى قربها من المعتقد الديني الإسلامي أو ابتعادها عنه.

حاولت الدراسة أن تجيب عن مجموعة تساؤلات فلسفية طرحتها، ومن أهم تلك التساؤلات:

- هل هناك وجود روحي يميز الإنسان في رحلته الإيمانية؟
- ما علاقة الإنسان المتصوف بمحيط المخلوقات من حوله في تجربته الصوفية؟
- هل بإمكان التجربة الصوفية أن تكشف عن مشاكل طبيعة النفس البشرية؟
- هل هناك رابط بين الصوفية وفلسفتها ولغتها؟
- اهل بإمكان التصوف لكشف عن المشكلات الأخلاقية التي تواجه الإنسان؟

كشفت الدراسة من خلال إجابتها عن التساؤلات السابقة أن النفري لم يكن يقصد أن يؤسس لفكر صوفي فلسفي يعتمده غيره من السالكين والمتصوفة، إنما كتابه كان عبارة عن حالات وجد صوفية، وظف فيها اللغة الرامزة الكثيفة للتعبير عن تلك الحالات التي يعيشها الصوفي " النفري ".

تهدف الدراسة للكشف عن التطور الصوفي ورؤيته وممارساته من خلال تجارب المتصوفة المختلفة، خاصة أولئك الرحالة الذين جابوا البلاد شرقًا وغربًا بحثا عن ضالتهم الإنسانية المفقودة، وسموهم الروحي الذي يوطد علاقتهم بخالقهم، وما هي أبرز السلوكيات الصوفية التي تؤكد ذلك التطور، كما هدفت الدراسة إلى الكشف عن بعض الاختلافات الفلسفية الصوفية بين النفري وبعض المتصوفة الذين جعلوا من بعض الأفكار مسلكًا رئيسًا في تصوفهم، كالحلول والاتحاد عند ابن عربي والحلاج، والفناء القلبي عند الغزالي.

اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي وذلك لتحليل نصوص كتاب المواقف والمخاطبات، وتأويل واستنباط ما يمكن استنباطه وتأويله منها؛ لذلك قُسمت الدراسة إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: الحلول والاتحاد عند النفري

المبحث الثاني: الفناء

المبحث الثالث: قلوب العارفين

المبحث الرابع: جهاد النفس

المبحث الخامس: التجلي " الكشف "

المبحث السادس: الوحدانية

المبحث السابع: العبدانية " العبودية "

المبحث الثامن: القوة " التمكين "

المبحث التاسع: الإقبال

المبحث العاشر: الدلالة

وجاءت الخاتمة لتتضمن أبرز النتائج وأهمها أن النفري يعد من أبرز المتصوفة المسلمين، الذين كانت لهم رؤية خاصة بهم، وابتعدت تلك الرؤية عن مبالغات الحلول والاتحاد الذي عُرف بين كثير من متصوفة الفكر الإسلامي.

الحلول والاتحاد عند النفري

يقول بعض المتصوفة بفكرة الحلول والاتحاد التي تجمعهم بالمولى عز وجل، وتجعلهم جزءّا واحدًا لا يتجزأ، ولا تستطيع الفصل بينهم، وهذا القول ذهب إليه بعض المتصوفة الذين وُصفوا بالمغالاة والشطط، والحلول هو " أن يكون الشيء حاصلًا في الشيء، مختصًا به، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر، تحقيقًا أو تقديرًا"[1] وهذا يعني أن الذات تحل في جسد آخر، ويصيران ذاتًا واحدة، وهذه الذات تفعل بفعل صاحبها، وتتكلم بكلام صاحبها، ويصير المنطوق واحدًا والفعل واحد، وهذا التعريف أخذ أبعاد أخرى عند المتصوفة فلقد صار من وجهة نظرهم " أن الحق اصطفى أجسامًا حل فيها بمعاني الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية"[2]وهذا ما يُسمى الاتحاد عند بعض المتصوفة.

ويعد من أبرز من قال بهذه الفكرة عند المتصوفة الحسين بن منصور الحلاج، المتوفى ٣٠٩هـ، فهو أول من فتح باب التصوف الفلسفي، والتقى في هذه الأفكار مع الاتحاد عند أبي اليزيد البسطامي، وابن الفارض، ووحدة الوجود عند ابن عربي وابن

[1]) الغزالي، الإحياء، ج٤، دار الكتب العصرية، بيروت، ط٥، ص: ٣٢٦

[2]) د. محمد ولد اباه، مدخل إلى أصول الدين، كتاب دعوة الحق" العدد الثاني، ط١، ١٩٩٩م، ص ١٣٢

سبعين، وابن برجان، وإن كانت النظريات الثلاثة تلتقي في معنى واحد، هو تأليه الذات البشرية، وفناء الإرادة الإنسانية في الإرادة الإلهية ([1])

لكنّ النفري الصوفي الرمزي لم يعُرف عنه قوله بالحلول والاتحاد، فكتابه المقاربات والمخاطبات أبعد ما يكون عن ذلك، فبرغم تخفي النفري، وابتعاده عن الناس، هذا التخفي الذي قد يدفع البعض إلى اتهامه بالقول بما يخالف العقيدة الإسلامية السائدة في موطنه، فالحقيقة أن صوفيته كانت صوفية رمزية تتوافق مع العقيدة الإسلامية ولا تخالفها خاصة فيما يتعلق بفكرتي الحلول والاتحاد، وفيهما يقول " وقال لي إن طاف بك ذكر شيء، فأنت في الثبتية؛ فتعبّد لي واجتهد، أحسبه وأجازي عليه"([2]) يمهد النفري لرؤيته في مفهوم الحلول والاتحاد مؤكدًا أن الله واحد لا إله إلا هو، يستحق العبادة والطاعة، والاجتهاد في إرضائه، وهو وحده الذي يجازي عباده عن أفعالهم، وهذه مقدمة تؤكد ما سيأتي لاحقًا من رؤيته في القول بالحلول والاتحاد.

" وإذا فنيت أذكار الأشياء فلا أنت أنت، وأنت أنت، وما أنا في شيء، ولا خالطت شيئًا ولا حللت في شيء، ولا أنا في في ولا من ولا عن، ولا كيف، ولا ما ينقال أنا أنا أحد فرد صمد"([3])

في عبارته هذه يشير إلى سمو الروح الإنسانية كلما تعلقت بمولاها وخالقها، فالنفس البشرية عندما تعرف الله وتتعلق بأسبابه تصفو وتسمو، ويصيبها الحدس أو تتحلى بالحكمة، ويختلف الإنسان الصوفي المتعلق بأسباب الله عن الإنسان العادي " فلا أنت أنت " لكنّ هذا الصوفي الروحاني يبقى إنساناً متوحدًا مع بشريته؛ لأن المولى عز وجل لا يحل في أحد ولا يتحد بأحد، ولا يخالط أحدًا، " وما أنا في شيء " لأنه الخالق القادر، فهو هو، أحد فرد صمد.

---

[1]) انظر: مصطلحات صوفية في الميزان، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، ع ٩، ٢٠٠٩م، ص: ١١٧ : ١١٨

[2]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات، تح، أرثر يوحنا أبري، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص: ٨١

[3]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات: ص٨١

تتكشف الحقائق أمام الصوفي المتعبد؛ لكنها حقائق الإيمان والقرب من الله، التي تؤكد إنسانية الإنسان وبشريته، وعلو المولى عز وجل ووحدانيته " وحدي وحدي، أظهرت لا مظهر إلا أنا"([1])

النفري يؤكد قدسية الذات الإلهية المتفردة، التي لا شبيه لها، ولا مثيل، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، ولا يحل ولا يتحد في أحد، فهو المنزه عن كل شيء.

" إلهي! أنت الظاهر، فلا يشبهك ما ظهر، وأنت الباطن، فلا يشبهك ما بطن، وأنت العالم، فما تشبهك ا العوالم، وأنت المتعرف، فلا تشبهك المعرفة، إلهي! أنت ! فلا أشباه تماثلك، ولا أمثال تشاكلك، ولا شواكل تجانسك."([2])

صوفية النفري رغم رمزيتها العميقة؛ لكنها فيما يتعلق بالحلول والاتحاد تتسم بالدقة والوضوح، والتأكيد على وحدانية الخالق وتنزيهه، والتأكيد على نفي الشبيه أو المثيل أو أي أمر يخالف العقيدة الإسلامية، ويساير الرؤية الصوفية الفلسفية التي اكتست بما يسمى بالحلول والاتحاد، تلك الرؤى التي وفدت إلى الصوفية من أصحاب الأديان والثقافات الأخرى خاصة الأديان الشرقية سواء كانت الهندية أو الفارسية أو الإغريقية، فكل تلك الثقافات تؤمن بما يعرف في التصوف الفلسفي الحلول والاتحاد.

" إلهي! أنت الدائم، فمن أدمته في صالحةٍ فهي محله الذي فيه حبسه، ومن أدمته في سيئة فهي موئله إلا أن تجيره"([3]) يؤكد النفري في مناجاته أنه لا قداسة لمخلوق أبدًا، فالكل يخضع لقدر الله، فهو الحافظ الحامي، وهو المجير من النار، وعلى الإنسان أن يعي ذلك، وأن يفهم حاله ووضعه مهما بلغ من مرتبة دينية أو صوفية.

" على الرغم من أن الغالب على نثر النفري الصوفي الفلسفي؛ لكنه استطاع أن يلبسه أثوابًا جمالية، من الاستعارات والمجازات، والعناصر الفنية الأخرى، التي ارتقت إلى

---

[1]) المرجع السابق، ص: ٨١

[2]) مجموعة مؤلفين، نصوص صوفية غير منشورة، تح، بولس نويا اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م ص ٢٦١

[3]) المرجع السابق، ص: ٢٦١

اكتساب مقومات النثر الفني"([1]) الذي عقد حوارًا اعتمد فيه أسلوب الدعاء، يرجو الله فيه، ويؤكد رمزيًا على رفضه القول بالحلول والاتحاد.

الفناء

تقوم علاقة الصوفي بربه على الطابع الخاص الذي يسعى الصوفيون لتأصيله، والتأكيد عليه، فعبادتهم للمولى عز وجل رتبة خاصة، تختلف كلية عن رتب عبادة البشر لربهم، فهم يتصلون بالله اتصالًا خاصًا، تبرز فيه صفات الرضا المطلق، الإخلاص التام، الغياب مع المولى في كل تعاليمه وفروضه وقضائه وقدره، لا خوفًا من قدرته العظيمة، إنما حبًا في رضا الله.

والفناء عند المتصوفة " هو سقوط الأوصاف الذميمة والبقاء بالأوصاف الحميدة"([2]) وربط البعض بين فكرة الفناء والغيبة، كما حدث مع سيدنا موسى عليه السلام عندما غاب عن الوجود لحظة تجلي الله له، وهذا ما قال به السهروردي " الفناء عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ، بل يفنى عن الأشياء كلها، شغلًا بما فني به، أو هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى عليه السلام، حين تجلى ربه للجبل"([3])

وذهب بعض المتصوفة وعلى رأسهم الحلاج أن الفناء " هو فناء الإرادة الإنسانية في الإرادة الإلهية؛ فتصير الأقوال والأفعال الصادرة عن الإنسان صادرة عن الله ومن كلامه الذي يدل على اتجاهه

الحق والحق للحق حق لابس ذاته فما ثم فرق"([4])

وهذا القول مرفوض من علماء الدين رفضًا قاطعًا؛ لأن الذات الإلهية لا تحل بأحد ولا تفنى في أحد؛ لذلك نجد أن الكثيرين قاموا بتكفير أصحاب هذه الأفكار، ولم يكن الحلاج وحده صاحبة فكرة الفناء التام مع الله بهذه الكيفية السابقة، فلقد كان مثله ابن عربي فيرى

---

[1]) نيفين إبراهيم ياسين، ميتافيزيقا الخطاب الرمزي في التصوف الإسلامي، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، ع ٦١، ٢٠١٧م ص: ١١٣٤

[2]) القشيري، الرسالة القشيرية، دار الجيل، بيروت، ط٢، ص: ٦٧

[3]) ربيعة بنويس، مصطلحات صوفية في الميزان، الفناء، الحلول، الاتحاد، القطب، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة بن طفيل، ع ٩، ٢٠٠٨، ص: ١١٨

[4]) ربيعة بنويس، مصطلحات صوفية في الميزان، الفناء، الحلول، الاتحاد، القطب، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة بن طفيل، ع ٩، ٢٠٠٨، ص: ١١٨

أن الفناء " هو الفناء عن الصفات البشرية والحياة بالصفات الإلهية، والتحقق بها"([1]) ، هذه الرؤى الصوفية لم يسلكها النفري، فلقد كان له رؤية خاصة به، هي رؤية أقرب للعقل الديني منها إلى الشطحات الصوفية الخاصة.

والفناء عند النفري يقوم على أساسين هما اللذين يحركان طاقات العبادة الحقة، ويوجهانها، ومن خلالها يستطيع السالك التدرج في معارج العبادة، أن يصل إلى مرتبة الفناء، تتمثل أساسيات الفناء في أمرين: الأول في المعرفة والعلم، فكل سالك طالب للعبادة الحقة أن يمتلك المعرفة والعلم، اللذين يقودنه بلا شك إلى إقامة العلاقة الخاصة بين العبد وربه" الفناء الصوفي "، وتتمثل الثانية في الجهل، والجهل نوعان: الأول : الذي يعني الجهل بكل الأغيار، وعدم الوقوع في الاندهاش بهم أو الانشغال بهما، والنوع الثاني من الجهل هو الجهل الذي يصيب السالك بالتشويش.

أولا: المعرفة / العلم

يرتبط الفناء عند النفري بالمعرفة، المعرفة التي تعني معرفة الخالق، وأن يكون سبحانه وتعالى ملء السمع والبصر والفؤاد والعقل الصوفي الذي يسعى لمعرفة الله، الحق حق المعرفة، فيقول النفري " أوقفني في المطلع، وقال لي أين طلعت رأيت الحد، جهرة، ورأيتني بظهر الغيب"([2]) تبدأ المعرفة الحقيقة بالوقوف على المطلع، والمطلع باللغة الرمزية الصوفية للنفري تعني بداية التصوف، بداية العلاقة الحقّة مع الله عز وجل؛ لذلك إذا وقف العبد وقفة سليمة في مطلع تصوفه، وبداية خطوات المعرفة الحقيقة لعبادة الله؛ كافأه الله بالرؤية القلبية، رؤية الله " رأيتني بظاهر الغيب "، وهذه الرؤية تستوجب الفناء المطلق في عبادة الله، فالرؤية الدنيوية هي معرفة الله، ورؤيته في قدرته، وعظمة خلقه، فالصوفي الحق هو الذي يجاهد من أجل معرفة حقيقة عبادة الله، ومن ثم تحل الرؤية في قلبه؛ فيبصر الله في كل فعل يفعله، أو في خلق الله الذي يتدبره الصوفي ويبصره.

[1]) ابن عربي، الفتوحات المكية، ج٢، ٥١٣

[2]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ٣١

فالمتفلسفة من الصوفيين يفهمون " العبودية بمعنى وجودي؛ فيرون أن أحوال العبد في عبوديته إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان، فإن الأعيان شئون ذاتية، ظهرت في الحضرة الواحدية بحكم العالمية، فهي معلومات معدومة العين أبدًا"([1])

من لامس بقلبه المعرفة، والعبادة الحقّة عرف قدرة الله، وامتلك التمييز بين الحق والباطل، " وقال إذا كنت عندي، رأيت الضدين، والذين أشهدتهما، فلم يأخذك الباطل، ولا يفتك الحق"؛([2]) لأن الوجود هو عين الحق تعالى، فالمعرفة التامة بحق العبادة المطلقة لله عز وجل، تمكن الصوفي من امتلاك القدرة على اتباع الحق، ورفض الباطل أو هجره هجرًا ذاتيًا دون الوقوع فيه أو حتى مراودة الباطل لنفس الصوفي؛ لأنه امتلك المعرفة الحقة بالله، وتمكن عبر المعرفة من الفناء في الذات الإلهية.

" وقال لي اطلع في العلم فإن رأيت المعرفة فهي نوريته، واطلع في المعرفة فإن رأيت العلم فهو نوريتها"([3]) من علامات الفناء الحق أن ترى بعين قلبك، وأن تفهم ببصيرتك، فإن وقفت على عتبات العبادة الحقة، والعبودية المطلقة لله فلابد أنك سترى المعرفة، وإن أبصرتها فهي نورانية العلم الإلهي الخاصة بالمعرفة القلبية المتجسدة في مراتب الفناء، وإن تدرجت وأبصرت العلم في المعرفة فلقد امتلكت الطريق السديد لعبادة الله، ومعرفته حق المعرفة، والعلم بقدرته حق العلم.

لكن مراتب الفناء التي تهتز فيها المعرفة، ويغيب العلم للحظات، قد تضعف وقد يخسر صاحبها الكثير من مراتب الفناء، ويتحول إلى إنسان عادي؛ لذلك يحذر النفري أولئك الساعيين للفناء " وقال لي اطلع في العلم فإن لم تر المعرفة فاحذره، واطلع في المعرفة فإن لم تر العلم فاحذرها"([4])

---

[1]) إبراهيم إبراهيم محمد ياسين، دلالات المصطلح في التصوف الفلسفي، دار المعارف، ١٩٩٩م، ص: ٥٣

[2]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ٣١

[3]) المرجع السابق، ص: ٣٢

[4]) السابق، ص: ٣٢

إن غياب المعرفة والعلم، وحدوث التشويش لدى الصوفي يعد وقوعًا في رق الأغيار، وكأنه يعبدهم دون الله؛ لذلك تتعطل لديه القدرة على المعرفة والعلم بحقائق الفناء الصوفي.

ثانيًا" الجهل

يعد الجهل عند النفري هو الجهل الذي يصاحب العقل الإنساني القاصر عن التعاطي الإيجابي مع العبادة الحقّة لله عز وجل، العبادة التي ينخرط فيها الصوفي؛ حتى يصل إلى مرتبة الفناء، فالجهل هو التشويش الذي يصيب عقل السالك وقلبه؛ عندما يشرك مع المعرفة الإلهية غيرها، هنا يحدث التشويش المُنكر، الذي يعطل طاقات التدرج في الفناء مع الله عز وجل، ورؤية الله في خلقه ومخلوقاته؛ لذلك يبادر النفري إلى التحذير المباشر من الجهل مبتعدًا عن الرمزية أو طاقات اللغة المتجددة عنده، فيحذر السالك أو المتعبد المتنسك من مغبة الجهل " وقال لي يا عالم اجعل بينك وبين الجهل فرقًا من العلم وإلا غلبك"([1])، وكأنه يقول للسالك في مراتب العلم لا تلتفت للجهل، لا تنشغل بالأغيار، فيقطعون رحلة الكشف المعرفي بينك وربك؛ فتسقط في هوة الجهل، الذي يؤدي بك إلى المعصية أو القطيعة بينك وربك.

" وقال لي يا عارف دم، وإلا أنكرت، يا عالم افهم وإلا جهلت"([2]) يؤكد النفري على حقيقة الفناء التي تتنافى مع الجهل؛ لذلك يعاود التأكيد على أن عدم المداومة على المعرفة تشويش، وعدم المداومة على الوعي والفهم جهل، يُفقد العارف السالك مسلكه، ومطلعه، ويُعيق صوفيته ونورانيته القوية.

إن الفناء في نظر النفري يستوجب المعرفة والعلم، فهما الطريقان الأمثلان لوصول العارف إلى معرفته، واتباع السالك مسلكه وتدرجه في معارج العارفين بالله، والعبادة الحقة تستوجب مقاومة الجهل، الجهل الذي يقود إلى التشويش، والقطيعة بين العبد وربه، ويدفع العارف إلى الانشغال بغير الله والميل إلى الأغيار التي تحاول إحداث القطيعة بين العبد وربه، ومن ثم يفقد الفناء في الذات الإلهية.

---

[1]) السابق، ص: ٣٢

[2]) السابق، ص: ٣٣

وهناك نوع ثان من الجهل، أشار إليه النفري، وهو مرتبة من مراتب الفناء في الله عز وجل، فالجهل الذي هو التغافل عن كل شيء غير وجود الله، هو مرتبة من مراتب الإيمان، فالجهل " بالله تعالى هو عين المعرفة بالله تعالى وصريح الإيمان، المجمع على خلود صاحبه في الجنة"([1])، والمقصود هنا أن إعمال العقل بشكل كبير من أجل الوصول إلى الله، عبر العلم المادي، هو الذي يؤدي في النهاية إلى الخروج من حالة الفناء، وأحيانا الشك في وجود الله.

" وقال لي يا عارف أين الجهالة منك، إنما ذنبك على المعرفة"(٢) الصوفي ليس كغيره، فهو من خاصة الخاصة في المعرفة الإلهية؛ لذلك فذنبه ليس على الجهل؛ فجهله في حالات الوجد هو عين الفناء في الله، وهو عين الإيمان؛ لذلك يسأل النفري " أين الجهالة " أي أين فناؤك التام في الله عز وجل ، فالجهل له طاقاته الروحانية التي اختصه الله بها بعد مجاهدته، وإخلاصه وفنائه، "فالجهل بالحقيقة الذي هو كنه الذات من حيث ما هي ، فإن الجهل هو صريح الإيمان، وكمال المعرفة بالله، إذ حقيقته العجز عن درك المعرفة بالكنه، وهو حقيقة الإيمان"([3])

وقال لي كلما قويت في الجهل قويت في العلم"([4])

إن الفناء عند النفري هو سلوك عملي، يمارسه الصوفي كي يصل إلى أعلى المراتب الصوفية التي تجعله في مكانة خاصة من الله عز وجل، فالفناء الذي أكدته نصوص النفري، هو الغياب عن الذات الدونية المتعلقة بذات الإنسان المتعلقة أو المرتبطة بالأغيار التي تحدث القطيعة بين العبد وربه، وهذا يعني الجهل بالذات الإنسانية، والجهل بالأغيار، ثم تعقب تلك المرحلة مرحلة الفناء في الذات الإلهية؛ فيصير الصوفي كله لله عز وجل، يراه في كل عمل له، ويبصره في كل ما في الكون من خلق ومخلوق، وهذا يعني المعرفة والعلم بالله عز وجل، فالفناء عنده علم ومعرفة بالخالق، وجهل بكل مسببات التشويش والقطيعة.

---

[1]) أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م ص: ٥١

[2]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ٣٣

[3]) أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص: ٥١ : ٥٢

[4]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ١٢٥

قلوب العارفين

يعد القرآن الكريم؛ المصدر الرئيس للصوفية، وبما أن القرآن هو المصدر الرئيس للصوفية والقرآن يولي أهمية كبرى بالقلب بوصفه أداة الإيمان وموطنه، فالقلب كما جاء في القرآن الكريم هو الجامع لكل الملكات الإيمانية من عاطفة إيمانية، ومعرفة إيمانية؛ لذلك أفرد الصوفية اهتمامًا كبيرًا بالقلب، وجعلوه المركز الرئيس في الإيمان الصوفي، وجاء النفري ليتحدث عن القلب بوصفه موطن الإيمان ومصدره؛ لذلك فهو يؤكد أن صاحب المعرفة الحقة هو الذي يملك القلب السليم " وقال لي صاحب المعرفة هو المقيم فيها، لا يخبر، وصاحب المعرفة هو الذي إن تكلم تكلم بكلام تعرفي وبما أخبرت به عن نفسي"([1]) الإيمان هو المعرفة، والمعرفة هي التي تجعل صاحبها ينطق بالحق، والحق في القلب، والقلب ملكة المعرفة " يا عبد انتقل بقلبك عن القلوب التي لا تراني، إن لي قلوبًا أبوابهم إليّ مفتوحة وأبصارهم إليّ ناظرة"([2]) القلوب هي التي يستقر فيها الإيمان، والإيمان يجعل المريد يبصر نور ربه وفضله، وهذا النور يستقر في القلب، ويصبح معرفة ربانية، " هي بيوتي التي فيها أتكلم بحكمتي، وفيها أتعرف إلى خليقتي"([3]) القلوب هي بيوت الله، التي يزرع فيها حكمته، أو المعرفة الإلهية، ومن خلال بيوت الله يتعرف الله على عباده المخلصين، الذين يتدرجون في الطاعات والعبادات؛ حتى يصلوا إلى أعلى المرتب الإيمانية، تتفق رؤية النفري التي ساقها في مواقفه ومخاطباته مع القرآن الكريم، فمن خلال الرمزية اللغوية، جاء الاتفاق في المعنى " ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ سورة الأنفال ١٠).

تستمر رؤية النفري في التأكيد على مكانة القلب، وكونه مسكن الإيمان، وسكن التقوى؛ لذلك فهو يطلب من المريد السالك الاهتمام بقلبه، ومتابعته، حتى يظل مسكن الله وبيته الإيماني " فانظر قلبك فإن كان من بيوتي فهو حرمي، فلا تُسكن فيه سواي، لا علمي

---

[1]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ٩٨
[2]) المرجع السابق، ص: ١٤٨
[3]) السابق، ص: ١٤٨

فليس علمي من بيوتي، ولا ذكري فليس ذكري من بيوتي، إنك إن أسكنت فيه ساكناً حجبتني، فانظر ماذا تحجب"(١)

كل إنسانٍ، وفق الصوفية، هو ميدان معركة، وجهاد عميق داخل النفس الإنسانية، فالمتع الدنيوية تحاول استقطاب النفس البشرية؛ لترضي النفس الأمارة بالسوء، وترضي طموحات الجسد الفاني؛ لكن الروح القلبية داخل الإنسان تقاوم هذا الاستقطاب، ومن هناك يكون القلب هو ساحة المعارك العميقة بين الجانب الدنيوي والجانب الروحاني الإيماني في النفس البشرية، فلو فشلت الروح وأُبعدت أصبح القلب بعيدًا عن الله، وسكنته الدنيا، وغاب عنه الإيمان، فصار العلم والمعرفة ليس علم الله ولا معرفته، وخلا من ذكر الله، وتمكن منه شيطان النفس، وحُجب الإيمان الإلهي عن القلب، وخسر الإنسان.

تتلاقى رؤية النفري حول القلب مع الرؤية الفلسفية لأبي حامد الغزالي، " فوظيفة القلب، في فكر الغزالي، هي وظيفة المِرآة؛ إنّه مصنوع ليعكس الأضواء الإلهية؛ لكنّ الانشغالات الأنانية والدنيوية تطمس المِرآة بالصدأ، وبمختلف العيوب، ووظيفة الطقوس الدينية الصوفية، والتمارين الروحية، لا سيما الذِّكْر، وهو التكرار للأدعية والأسماء الربانية، تتمثّل في تنقية سطح المِرآة، وتدريجياً، يدرك الصوفي طرائق النعمة الإلهية، بمزيد من الحدّة، ويمكنه التوصل إلى تنقيةٍ كاملة، وعندئذ يستطيع معرفة "الفناء" أمام ظهور الأنوار الإلهية المُبهرة التي تتجلى في القلب"(٢).

كلا الرؤيتين ينبثقان من الرؤية القرآنية للقلب، فالقلب كما نعرف هو مصدر الإيمان ومنبعه في القرآن الكريم، وهو المعرفة الإلهية، " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُور" (الحج: ٤٦)

---

١) السابق، ص: ١٤٨

2(https://www.hafryat.com/ar/blog/%D9%85%D8%A7%D8%B0%D8%A7-%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D9%81-%D8%B9%D9%86-%D8%B1%D9%88%D8%AD%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%84%D8%A8-%D8%B9%D9%86%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%88%D9%81%D9%8A%D9%8A%D9%86%D8%9F\
٢١ أبريل الساعة ٤.٤٧

وفي هذا السياق يقول النفري: " يا عبد انظر ما آتيتك من علم ومعرفة، وما آتيتك من ذكر وموعظة، وما آتيتك من حكمة وتبصرة، فاجعل ذلك حرسًا على أبواب قلبك، وحجابًا لسواي عنه"([1])

جهاد النفس

تقوم فكرة الصوفية في الأخلاق على مبدأ المجاهدة، مجاهدة النفس؛ بهدف صرفها عن الزلات التي تخرجها من باب الطاعة الإلهية والتجرد من متع الدنيا، التي تعيق السمو الروحي للمتصوف، والمجاهدة الصوفية هي درجة أكبر من أية مجاهدة يقوم بها الإنسان العادي – غير المتصوف – فالمجاهدة درجات، " وذلك بالالتزام بألوان خاصة من العبادة والطاعة، بالإضافة إلى ألوان من الرياضة يلتزم بها المريد السالك حسب توجيه موجه، شيخًا كان أو معلمًا أو مؤدبًا؛ حتى يبلغ الغاية المنشودة"([2]) لكن لا يُشترط أن يكون الموجه إنسانًا، فقد يكون الموجه هو قدر الله للإنسان، أو الإلهام الذي يصيب المتصوفة؛ فيلهمون بما يقولون أو يعملون، وقد يسلكون مسالك أخلاقية جديدة أو غير مدركة للنفس البشرية؛ لذلك تبقى حالات الأخلاق الصوفية ومنها المجاهدة نوعًا خاصًا من الأخلاق التي يسلكها الصوفي لبلوغ مبتغاه الديني.

يقول النفري رامزًا للنفس البشرية " أوقفني في الاختيار وقال كلهم مرضى"([3]) يحاول العقل البشري فهم النفس البشرية، وسبر أغوارها؛ حتى يتسنى له فهم الإنسان، اختياراته، أفكاره، طموحاته، ومن ثم التصدي للانحرافات السلوكية في النفس البشرية، من ارتكاب معاص، الوقوع في حالات اليأس والقنوط من رحمة الله، أو عجز النفس البشرية عن التمييز بين الحق والباطل، وهذا ما أراد النفري الرمز إليه من خلال " أوقفني في الاختيار " فالإنسان عندما يوضع موضع الاختيار يقع فريسة النفس البشرية الأمارة بالسوء، العاجزة عن كشف الحقيقة، وهذا ما حذا بالنفري أن يصف كل نفس بشرية " كلهم مرضى " في إشارة واضحة إلى تلك النفس الأمارة بالسوء التي ينبغي مجاهدتها، وكأنه يتمثل

[1]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ١٤٩

[2]) العدلوني الإدريس ي محمد. مدرسة ابن عربي الصوفية ومذهبه في الوحدة. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء. الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص: ٧٢

[3]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ٨١

معنى الآية الكريمة " ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) سورة يوسف

" وقال لي هو ذا يدخل الطب عليهم بالغداة والعشي، وأخاطبهم أنا على ألسنة الطب، ويعلمون أنني أنا أكلمهم ويعدون الطب بالحمية ولا يعدوني"([1])

تعلم النفس البشرية الحق؛ لكنها تحيد عنه دومًا، وكأنها مجبولة على الانحراف، والميل لنوازعها، دون اللجوء للحق، للخالق، الذي وعدهم كل شيء حسن، وبيده كل شيء؛ لذلك سنجد النفري يعقب على ذلك بالرمز طالبًا من كل إنسان مجاهدة نفسه التي تشبه النار المشتعلة، وعليه إطفائها بيديه، بذاته، بقوته " وقال لي إذا رأيت النار فقع فيها، ولا تهرب؛ فإنك إن وقعت فيها؛ انطفت، وإن هربت منها طلبتك وأحرقتك"([2])

يكشف النفري عن حالات المجاهدة للنفس الإنسانية التي تشبه النار المشتعلة، إن هرب منها صاحبها، واستسلم لنوازعها؛ غدرت به، وجعلته فريسة لمعصية الخالق، ومن ثم أحرق بالنار التي هي من صنع نفسه البشرية، التي أجبرته على مخالفة الحق؛ لذلك فهو يبرز أن من أهم مراتب المجاهدة هي التضحية، من خلال إلقاء الإنسان نفسه في مواجهة نار النفس البشرية؛ لأنه كلما واجهها، كانت السعادة من نصيبه، بانطفاء نيران شهوة النفس وشرها.

" وقال لي اخرج إلى البرية الفارغة، واقعد وحدك؛ حتى أراك، فإني إذا رأيتك عرجت بك من الأرض إلى السماء، ولم أحتجب عنك"([3]) الخروج عنها هو هجر شهوات النفس، والابتعاد عن ملذات الدنيا، والخضوع لأوامر المولى عز وجل، والوحدة هي الانعزال عن النفس الأمارة بالسوء، والاندماج مع النفس السوية التي تبصر الحق، وتسعى له، ولو تحقق هذا للصوفي لرفعه الله إلى أعلى مراتب الدنيا، ولم يغب عنه لحظة أبدًا، وصار المجاهد للنفس من العارفين"، وأكن لك حافظًا حاميًا ونادني أعوذ بك من سوء القرين"([4])

---

[1]) المرجع السابق، ص: ٨١
[2]) السابق، ص: ٨١
[3]) السابق، ص: ٨٢
[4]) السابق، ص: ٨٢

والمجاهد للنفس، الصوفي العارف لو نجح في مجاهدته لنفسه فاز وحصد كل ما يتمناه " وقال لي قد جعلت لك في السد أبوابًا، بعدد ما خلقت وغرست على كل باب شجرة وعين ماء باردة، وأظمأتك، ووعزتي لئن خرجت لرددتك إلى منزل أهلي ولا سقيتك من الماء"([1])

كلما قاوم الصوفي نفسه، كلما ظمأ إلى متع الدنيا وحرم نفسه؛ كانت الجائزة الإلهية، أن جعله الله من عباده المخلصين، وشرب من الماء الذي اختص الله به عباده المخلصين.

ويستمر النفري في تحذير الإنسان من مغبة عدم إخلاص النية في جهاد النفس، أو مطواعة شرورها، فيقول " إذا كنت لي كما أريد في بعض الشيء فقد ركبت الخطر، وإن تحرك من بؤبؤ عينك ضرك"([2]) لا بد من التسليم المطلق لله، فلا يحق للصوفي العارف المجاهد للنفس أن يبقي على بعض شهوات النفس بداخله، تُحركه، أو تمنعه من الإخلاص التام؛ فهذا قد يذهب عن الصوفي سمات العارف، ونعيمه.

" وقال لي نم لتراني، فإنك تراني، واستيقظ لتراك، فإنك لن تراني"([3])

تغافل عن نفسك، وأبصر روح الله في ذاتك، تنعم برؤيته في نعمه؛ لكنك لو تغافلت عن الله، خسرت، وفقدت البصيرة التي يمنحها الله لأوليائه.

التجلي " الكشف "

التجلي أو الكشف هو " انكشاف الشيء وبروزه، ويقال تجلى الشيء إذا انكشف، ويقول الجرجاني التجلي ما ينكشف للقلوب من أنوار هذه الغيوب، وإنما جمع الغيوب، باعتبار تعدد موارد التجلي، فإن لكل اسم إلهي بحسب حيطته ووجوهه تجليات متنوعة"([4]) فالتجلي هو رفع الغطاء عن البصيرة الإنسانية؛ بهدف المعرفة الحقة لله عز وجل، أو أن ترى تجليات الله في خلقه دون تشويش؛ حتى تنجح في الفناء المطلق في الله، الذي استوجب أن تتكشف له الحجب.

---

[1]) السابق، ص: ٨٢

[2]) السابق، ص: ٨٢

[3]) السابق، ص: ٨٢

[4]) إبراهيم يا سين، دلالات المصطلح في التصوف الفلسفي، ص: ١٧

" يستر الله سبحانه وتعالى العوام من الناس عليهم حالهم؛ حتى يجتهدوا، ويجدوا في عبادتهم، وحتى لا يغتروا ويفتنوا بجهلهم بالله تعالى، فهو بمثابة عقوبة لهم، ولولا هذا الستر لكان سر الله مباحًا، ومبتذلًا، غير مصون بين أيدي العباد، وكما يقول بعض أئمة المتصوفة: " لا بد للشمس من سحاب، وللحسناء من نقاب؛ ولذلك فإن أعظم الأماني لدى عوام الناس، أن يتجلى الله لهم؛ ليعرفونه تعالى إذ أن بلاءهم في الستر"([1])

لم يبتعد النفري كثيرًا عن هذا المفهوم للكشف والتجلي عنده، فقد ربطه بالحجاب أو الغطاء، وسعى إلى توضيح المفهوم من خلال رمزية اللغة التي اعتمدها في تعبيراته الصوفية " أوقفني في الكشف والبهوت، وقال لي انظر إلى الحجب"([2]) تؤكد لغة النفري الرمزية حالات الكشف والتجلي التي تصيب الإنسان، من خلال إرسال الله لها في نفس الصوفي المتعبد؛ لذلك فرحلة الكشف لا بد أن ترتبط بالحجب؛ حتى يعلم الإنسان مدى ما وصل إليه من مرتبة لا بد من الحفاظ عليها، والسعي في استمراريتها، وعدم العودة مرة أخرى إلى عوام الناس، الذين يخفي الله عنهم تجلياته وكشفه.

" فنظرت إلى الحجب، فإذا هي كل ما بدا فيما بدا، فقال انظر إلى الحجب، وما هو من الحجب"([3]) يعد التجلي فتحًا من الله للعبد بعد الستر أو الحجب عنه؛ فيتجلى الله بنعمه عليه؛ فيكشف له ما غاب عنه، وتظهر له أنوار المشاهدة، فتمتلأ روح العبد بالبهجة الإلهية نتيجة ذلك التجلي، ومع هذا الكشف أو التجلي يؤكد أن الله حاضر في كل شيء، لا يحتجب أبدًا عن مخلوقات؛، لكن العيب في الإنسان، فبأفعاله تطمس بصيرته، وتحجب عنه الرؤية، حتى إذا حل في رحلة التجلي، فبقدر إخلاصه وفنائه، وعبادته لله تتكشف له الحجب.

من خلال الأضداد تتضح المعاني والمفاهيم؛ لذلك فالنفري يوضح الحجب وأنواعها؛ كي يقف العبد من نفسه موقف المتفحص الواعي، الساعي إلى الولوج إلى مراتب الكشف والتجلي بعد الستر والحجاب " وقال لي الحجب خمسة: حجاب أعيان، وحجاب علوم،

---

[1]) حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، ٧٣

[2]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ١٠٨

[3]) المرجع السابق، ص: ١٠٨

وحجاب الحروف، وحجاب الأسماء، وحجاب الجهل"([1]) فأنواع الحجاب تختلف بدرجة العبد في نضاله الروحي من أجل عبادة الله، فمن ظن نفسه قد امتلك البصر الذي به تنكشف له الأمور فقد حجب عن نفسه بعض النضال الروحي، وُمنع من رتبة من رتب الكشف، فليس بالعين أو البصر والبصيرة تنكشف لك الحجب، إنما هي جزء طفيف من كثير مستور عنك، وحجاب العلوم نوع يرتبط بحجاب الأعيان، فليس بالعلم الذي وعيته بعقلك أو فهمك ستملك التجلي، فعلوم الدنيا لا تمنحك الكشف والتجلي، وكذلك الحروف والأسماء، فليس باللغة ورمزها فقط تحل في التجلي، والجهل قد يمنعك من التجلي وقد لا يمنعك، فلو كان جهلًا بالدنيا ومتعها مع نضال روحي فقد يصيبك التجلي والكشف، وتعلم وترى ما لا يراه سواك.

يؤكد النفري أن التجلي يرتبط بعطاء الله للعبد بعد نضاله الروحي من أجل الوصول إلى تلك المرحلة العظيمة من التجلي فيقول " وقال لي إذا لم أؤت عبدي من كل شيء، فليس هو عبد الفارغ، وإن تفرّغ مما آتيته لأنه قد بقي بيني وبينه ما لم أؤته، وإنما عبد الفارغ إلا مني، فهو عبدي، الذي آتيته من كل شيء سببًا، وآتيته منه علمًا، ومنه حكمًا، فرأى الحكم جهرة، ثم تفرّغ من العلم، وتفرغ من الحكم، فألقاها معا، إلى فذاك هو عبدي الفارغ من سواي"([2])

يهب الله عبده العلم، والمعرفة، والحكمة؛ فيبصر بهم كل أسباب الحياة، ويقدس قدرة الله وإلوهيته؛ لكنه رغم كل ذلك يتخلى العبد عن كل معرفة وعلم وحكمة سوى حكمة الله وعلمه ومعرفته، فكأن الله ألقى لعبده كل الأسباب الدنيوية؛ لكنه تركها وارتحل إلى النضال الروحي من أجل عبادة الله، فسكنته عبادة الله، وحلت فيه المعرفة والحكمة والعلم الذي هو من روح الله؛ وبهذا يبصر المتجلي له ما لا يبصره غيره من البشر، ويعرف ما لا يعرفون، ويعلم ما لا يعلمون؛ لأنه استغنى بعلم الله عن كل علم.

فالتجلي الذي يقصده النفري هو نور إلهي يقع في قلب العبد وعقله، وتسمو به روحه، وبه تطلع النفس البشرية المناضلة الفارغة من سوى الله على أنوار الغيوب.

---

[1]) السابق، ص: ١٨٠

[2]) السابق، ص: ١٠٩

الوحدانية

الله هو الواحد الأحد، الذي لا إله إلا هو، مبدأ ديني ثابت لا يتغير، ولا يتبدل، يؤمن به الجميع إيماناً مطلقًا، ومنهم الصوفية، الذين يؤمنون بهذا الركن الأساسي إيماناً واضحًا؛ لكن رغم إيمانهم بهذا لهم رؤى خاصة، لا تخرج مطلقًا عن وحدانية الله، إنما في كيفية الشعور بها، والتعامل معها، وكيف يبصر الإنسان منها وحدانية الله وقدرته.

فالواحد عند القاشاني هو " اسم للذات بهذا الاعتبار"([1]) أي بوصف الله الخالق الواحد، الذي لا شريك له، ويكمل القاشاني " الواحدية اعتبار الذات من حيث انتشاء الأسماء منها، وواحديتها بها مع تكثرها بالصفات"([2]) فالله عز وحل واحد تتعدد صفاته، وتتكاثر بعظيم قدرته.

يقول النفري " أوقفني في الواحدانية، وقال لي أظهرت كل شيء يحجب عني، ولا يدل على، فحظ كل إنسان من الحجبة كحظه من التعلق"([3]) يشير النفري إلى وحدانية الله الذي يظهر كل شيء في صفاته، وفي خلقه، وكل إنسان يبصر أو يلمس صفات الله وفق إيمانه، وإخلاصه في العبودية؛ لذلك فالله يطلعه على العديد من صفاته مما يحجبه عن بعض البشر. فالله عز وجل واحد، له الصفات الكثيرة، وبقدرته له الخلق العظيم.

" وقال لي إذا بدوت لم تر من هذا كله شيئًا"([4]) فالله الواحد الخالق، صاحب القدرة والمشيئة؛ ولأنه الواحد فهو صاحب القدرة، لو تبدى للكون لفني كل شيء من جبروت عظمته، وقدرته، ونوره الذي لا يحتمله خلقه من البشر، والحيوان، والجمادات.

النفري يؤكد على وحدانية الله من خلاله وصف قدرة الله، وعظمته، فهو صاحب القوة، صاحب النور، هو الأوحد صاحب كل الصفات التي تمكن وحدانيته، وقدرته.

" وقال هذه عبادتي، وقال لي من أنا، فكسفت الشمس والقمر، وسقطت النجوم، وخمدت الأنوار، وغشيت الظلمة كل شيء سواه، ولم تر عيني ولم تسمع أذني، وبطل حسي،

---

[1]) عبد العزيز الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تح، د. عبد العال شاهين، دار المنار، ط١، ١٩٩٢م ص: ٧٣

[2]) المرجع السابق، ص ٧٣

[3]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات، ص: ٨٠

[4]) المرجع السابق، ص: ٨٠

ونطق كل شيء فقال الله أكبر"([1])، تبدو وحدانية الله في قدرته على الخلق، وخلق الله وفق نص النفري دليل وحدانيته، فهو الصانع الأوحد، ولو شاء كسفت الشمس، والقمر، وتساقطت النجوم من السماء، وساد الظلام، وفقد الإنسان كل قدرة وهبها له الله، وأعلن الوجود أن لا إله إلا الله، " الله أكبر "، ونص النفري يرمز كذلك إلى وحدانية الله، وكثرة صفاته، وكثرة خلقه، الذين يؤكدون جميعًا وحدانية الله.، وينبثق من قول الله تعالى " **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** " **(١٨) آل عمران**

" فلا نهاية لتجليه تعالى، ولا غاية لأوصافه، ولا نفاد، ولا انقطاع لأفهامه، وليس للتوحيد كيف، ولا للقدرة ماهية، ولا يشبهه أحد، وليس كمثله شيء"[2] فهو الله الواحد الأحد.

" وقال لي ما بقي نور في مجرى بحري إلا وقد رأيته، وجاءني كل شيء حتى لم يبق شيء"([3])

وهكذا تكون أول علامات لشهود الوحدانية عند النفري، "هي خروج الصوفي عن الكائنات، ورد جميع المخلوقات إلى الله تعالى، لما يستوي عليه من حقائق التوحيد، بحيث لا يشهد حركة ظاهرة أو باطنة ولا أثر، ولا يسمه خبرًا ولا يلاحظ حسًا، ولا زمانًا ولا مكانًا، فالحق يفنيه عن الأكوان وعن نفسه، فيضمحل جمعه ومتفرقاته، وتتلاشى أحواله وأوقاته، فلا أثر ولا خبر ولا حركة، ولا وارد ليس في الوجود إلا المالك الواحد"([4]) الله الفرد الصمد.

<u>العبدانية " العبودية "</u>

تعد العبدانية عند النفري من أهم مراحل التصوف أو فلسفة التصوف؛ لأن فيه يصفو الإنسان لخالقه، ويصير عبدًا كامل العبودية له، فالعبدانية " العبودية " المطلقة لله عز وجل

[1]) السابق، ص: ٧٣
[2]) انظر : أبو طالب المكي، قوت القلوب، ج ٢، ص: ١٦٩ : ١٧٩
[3]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ٧٣
[4]) جمال المرزوقي، فلسفة التصوف عند محمد بن عبد الجبار النفري،دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٩م، ١٩٨

هي أعلى مراتب الإيمان الصوفي، فهي التي تؤكد وصول الإنسان لمراتب الكشف القائم على فكرة العبدانية.

يسعى النفري إلى شرح متى يصل الصوفي إلى مرتبة العبداينة، ومتى نسميه عبداني " عبد " كامل العبودية لله، فبدون الوصف والشرح لن يفهم الصوفي ولن يعرف متى يصل إلى " العبدانية " أوقفني في العبدانية وقال لي أتدري متى تكون عبدي؟ إذا رأيتك عبدًا منعوتًا عندي بي لا منعوتًا بما مني ولا منعوتًا بما عني، هنالك تكون عبدي"([1])

يؤكد النفري رؤيته في مفهوم العبدانية، وكيف يعرف الإنسان وصولها إليه، من خلال إيمانه المطلق بالله عز وجل، وتركه لكل تعلق بغير الله،، فالعبودية هي خلاص الصوفي من رق الأغيار، أو الرق لغير الله عز وجل، فلا عبودية إلا لله عز وجل، فالإنسان يرد إلى الله، وأفعاله كذلك ترد لله، فالصوفي الحق لا ينعت بغير الله، ولا لغير الله، وعندما يصير في هذا الوصف، يصبح في موقف العبدانية " العبودية " هنالك كذلك كنت عبد الله، وإذا كنت عبد الله لم يغب عنك الله"([2]) عندما تتخلص من رق الأغيار، وتصير عبدًا لله عز وجل، لن يغيب عنك الله، سيحل نوره بداخلك، وستصبح كل أفعالك من فيض عبوديتك لله، وستظل هكذا في فيض نور الله إلى أن تتغير نفسك أو تنعت لغير الله " وإذا كنت منعوتًا بسوى الله غاب عنك الله"([3])

كشفت نصوص النفري عن شروط العبدانية " العبودية " لله عز وجل، ومن أهم شروطها ألا يتعلق الصوفي بغير الله، ولا يربط وجوده إلا لله، ولا ينعت أي يوصف بغير الله، فهو منتسب لله عز وجل انتسابًا تامًا، وهذه عبودية الخاصة أو صفوة الخاصة الذين يعبدون الله بحالات وجد خاصة " ويذكر القاشاني أن عبودية خاصة الخاصة، تعني أنهم شهدوا نفوسهم قائمة به في عبوديتهم، فهم يعبدونه في مقام أحادية الجمع والفرق، ثم أن الصوفية من المتفلسفة يفهمون " العبودية " بمعنى وجودي فيرون أن من أحوال العبد في عبوديته

[1]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ١١٠
[2]) المرجع السابق، ص: ١١١
[3]) السابق، ص: ١١١

إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان، فإن الأعيان شئون ذاتية ظهرت في الحضرة الواحدية بحكم العالمية، فهي معلومات معدومة العين أبدًا"([1])

كشف النفري عن رؤيته الفلسفية العميقة عن مفهوم العبدانية " العبودية " الذي أكد فيه حياة المتصوف الخالصة لله عز وجل شكلًا ومضمونًا، " وقال لي العبدانية أن تكون عبدًا بلا نعت، فإن كنت بنعت، اتصلت عبدانيتك بنعتك لا بي"([2]).

إن العبدانية عند النفري هي علاقة خاصة الخاصة بالله عز وجل، لا ينسبون لغيره، ولا يعرفون بغيره، ولا يتعلقون بغيره؛ فتنكشف لهم مسالك العبدانية السديدة، التي يسيرون فيها، ويصيرون بها في طاقات روحانية متصلة بنور الله.

القوة / التمكين

يربط النفري بين القوة / التمكين والقيومية، فمن خلال رؤيته يبدو التداخل بينهم واضحًا، فالقوة جزء من القيومية والقيومية جزء من القوة، أو بمعنى آخر كل منهما يؤدي إلى الآخر، " أوقفني في وصف القوة، وقال لي هي وصف من أوصاف القيومية"([3]) فالقوة كما ذكر وصف من أوصاف القيومية، فهي صفة القيوم، فالقيوم من صفاته أو إذا قصدنا وصفه قلنا إنه الذي يمتلك القوة، وبقوته تسير الأمور. " وقال لي سرى وصف القوة في كل شيء فيه قام على مختلف القيام ولو سرى فيه وصف القيومية لرفع المختلف وقام به على كل حال"([4]) فالقوة في كل أمر وحال، والقيومية تشمل كل شيء ولا تخرق، فكلاهما متلازمان لا يفترقان، ويتكاملان ببعضهما البعض.

وفي هذا المعنى يختلف النفري في حديثه عن القيومية عن ابن عربي، فابن عربي لم يربط بين القيومية والقوة، إنما ربط بينها وبين صفات أخرى، " القيومية هي لله على ما تعطيه ذاته و للعبد على ما تعطيه ذاته" هذا المقام يسمى مقام القيومية و اختلف أصحابنا هل يتخلق به أم لا و لقيت أبا عبد اللّه بن جنيد من شيوخ الطائفة من أهل قبرفيق من أعمال رندة و كان معتزلي المذهب فرأيته يمنع من التخلق بالقيومية؛ فرددته عن ذلك من

[1] إبراهيم ياسين، دلالات المصطلح في التصوف الفلسفي، ص: ٥٣
[2]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ١١١
[3]) المرجع السابق، ص: ١٢٤
[4]) السابق، ص: ١٢٤

مذهبه فإنه كان يقول بخلق الأفعال للعباد فلما رجع إلى قولنا، وأبنت له معنى قوله تعالى اَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ فقد أثبت لهم درجة في القيومية و كان قد أتى إلى زيارتنا فلما رجع إلى بلده مشيت إلى زيارته في بلده فرددته و جميع أصحابه عن مذهبه في خلق الأفعال فشكر اللّه على ذلك رحمه اللّه فيتخيل من لا معرفة له بالحقائق أنها من خصائص الحق و لا فرق عندنا بينها و بين سائر الأسماء الإلهية كلها في التخلق بها على ما تعطيه حقيقة الخلق كما هي لله بحسب ما تعطيه ذاته تعالى و تقدس"([1]) بهذا الوصف الذي أشار إليه ابن عربي في فتوحاته المكية يؤكد أن القيومية هي الخلق، أو القدرة على الخلق، التي هي لله وحده سبحانه وتعالي، وليست للمخلوق كما كان يظن المعتزلة، ومن بين ثنايا الكلام نفهم كذلك أن القيومية هي القدرة على الإقناع والإفهام التي يملكها المولى عز جل، ويمنحها لعباده المخلصين أمثال ابن عربي الذي نجح في تغيير عقيدة المعتزلي، ورده إلى مذهب ابن عربي، فالقيومية كما يقول " هي لله على ما تعطيه ذاته و للعبد على ما تعطيه ذاته".

وعند ابن عربي السهر ركن من أركان القيومية فيقول " فينبغي لصاحب هذا المقام إذا سهر أن يسهر بعين اللّه و عين اللّه حافظته بلا شك الحفظ الذي يعلمه اللّه لا الحفظ العرضي فإن اللّه تعالى ما رأيناه يحفظ على كل عين صورتها بل الواقع غير ذلك و هو مطلق الحفظ فإذن ليس الحفظ ما يتخيل من حفظ الصور على أعيانها"([2]) تبدو الاختلافات واضحة بين الرؤيتين رؤية النفري التي ترى أن القيومية ترتبط بالقوة والتمكين، ورؤية ابن عربي التي يرى القيومية ترتبط بالقدرة على الإقناع والإفهام والسهر، والعين التي لا تغفل ولا تنام، وبرغم الاختلافات اللفظية الواضحة فإن العمق الدلالي للرؤيتين لا يختلف فمن يملك القوة والتمكين يملك الإفهام والإقناع، ومن عينه لا تنام ولا تغفل، هو المالك للقوة التي تكبح جماح أي ضعف قد يُظن، وهذا ما يكشف عنه النفري " وقال لي قوة

[1]) https://ar.lib.eshia.ir/10511/2/182 ٧ أبريل ٢٠٢٢م الساعة ٢.٢٠
[2]) https://ar.lib.eshia.ir/10511/2/182 ٧ أبريل ٢٠٢٢م الساعة ٢.٢٠

القوي وضعف الضعيف من أحكام وصف القوة"([1]) فأنت لا تستطيع معرفة القوة إلا بوصف الضعف، ولا تصف القوي إلا بالكشف عن الضعيف، فبالضد تتكشف المعاني.

" القيومية محيطة لا تخرق"([2]) فالقيومية شاملة جامعة،، فالقيومية من وجهة نظر النفري هي القوة والتمكين التي تسقط بقدرة الله على العبد، فالعبد المخلص " الصوفي " يرى بعين الله، ويقوم بقدرته، " مقيمًا لأوامره في خلقه بقيوميته، ممدا لهم فيما يقومون به من معايشهم ومصالحهم وحياتهم"([3])

إن القوة المرتبطة بالقيومية هي الفاعل الأساس في حياة الصوفي المنقطع لله عز وجل، فهي جوهر حياته، وجوهر عبادته، ومصدر سلوكياته " وقال لي إن ركبت القوة نظرت بالقوة، وإن ركبت القوة سمعت بالقوة، وإن ركبت القوة تصرفت بالقوة"([4]) من خلال قوة الله التي تهمين على السالك المتصوف يستطيع أن يستجلي الحقيقة، السمع، السلوك، امتلاك القوة الفاعلة في كبح جماح النفوس الأمارة بالسوء " وقال لي إذا تصرّفت في كل متصرف بالقوة لم تمل، وإذا لم تمل استقمت، وإذا استقمت فقل ربي الله، قال الله تعالى " **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) ٣٠فصلت** "، وقال لن تركب القوة حتى تتفرغ لي من سواي"([5])

كل مواقف النفري يعبر عنها برمزية لغوية صوفية عميقة، تحمل ألفاظًا قليلة، لكنها كثيفة الدلالة، عميقة المعاني، تؤكد على الحقيقة التي يسعى إليها السالك، المتصوف، وهي الانقطاع لله عز وجل، والفناء فيه، والإخلاص في عبوديته، فكل مواقف النفري هي مواقف وجد إلهية، تؤكد أن الله هو الخالق وأن العبد الحقيقي هو المسلم لله في كل صغيرة وكبيرة، الذي تجرد من كل سبب سوى الله، فكل ما تريده من نعيم يرتبط بتفرغك لله عز وجل.

---

[1]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ١٢٤
[2]) المرجع السابق، ص: ١٢٤
[3]) عبد الرازق القاشاني، معجم مصطلحات الصوفية، ص: ١٣٨
[4]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ١٢٥
[5]) المرجع السابق، ص: ١٢٥

الإقبال

يعد موقف الإقبال عند النفري من المصطلحات والحالات الغامضة بعض الشيء، خاصة أنه لم يُسبق إلى هذا المصطلح من قبل، وتميز كذلك باللغة الرمزية، المحملة بكثافة دلالية عميقة، تحتاج إلى مزيد من التدقيق، والمراجعة اللغوية والفكرية من أجل الوصول إلى جوهرها ؛ لذلك سأقف أمام المعني اللغوي للكلمة قبل محاولة تأويلها، وفك طلاسمها الصوفية.

(**إِقْبال**:مصدر **أَقْبَلَ**، **إِقْبَالُ** اللَّيْلِ : حُلُولُهُ، **الإِقْبالُ** عَلَى الدَّرْسِ : الاهْتِمامُ بِهِ، الاجْتِهادُ، (مصطلحات **الإقبال** (:القدوم **أقبل** القاضي على الخصم: جعله أمامه وأصغى إليه. (فقهية)"([1]) من خلال المعنى اللغوي المذكور نستطيع فهم المصطلح أو محاولة تأويله والوصول إلى مبتغاه الرمزي الذي قصده النفري، من خلال ربط المعنى اللغوي بما ذكره من حالات صوفية أو تعبيرات صوفية رامزة في موقف الإقبال، فلو توقفنا أمام مصطلح " إقبال " من خلال الفقه، وعرفنا أنه يوضح وقوف الخصم بين يدي القاضي بوجهه أي مواجهًا له، فنفهم من المصطلح الصوفي عند النفري أنه يقصد وقوف العبد بين يدي الله عز وجل، وجهًا لوجه، فعلى العبد أن يسعى إلى ربه، وأن يقف بين يديه، ناظرًا متطلعًا إلى نور وجهه الكريم، بهدف الوصول إلى مرتبة الصفاء والنقاء، وما يؤكد ما توصلنا إليه من معنى من خلال ربط المصطلح بالمصطلح الفقهي ما ذكره النفري في مطلع موقفه " أوقفني في إقباله، وقال لي لكل ولي باب يدخل منه وباب يخرج منه"([2]) فأوقفني في إقباله أي كنت في قدومه أنظر إليه وأنتظره، وحين قال: لكل ولي باب، فهو يعني القدوم، والإقبال الذي هو الحلول، ومن هنا يكون مقصود النفري هو قدوم العبد إلى ربه، وحلوله حيث يكون، وتكون أوامره ونواهيه؛ حتى تحدث حالة الوجد الصوفي، والطاعة المطلقة لله عز وجل.

---

[1] (https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%A5%D9%82%D8%A8%D8%A7%D9%84/

[2]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ١٢٨

" وقال لي الدعاء الخالص أدب من آداب الاجتماع"([1]) الإقبال يلزم اجتماع، والاجتماع يلزمه الدعاء، فعلى العبد حين يقف بين يدي ربه أن يدعوه، يبتهل؛ حتى ينال رضاه كاملًا، فالدعاء لرب العباد هو عين العبادة، وعين العلاقة الخاصة بين العبد وربه، وبهذا يكون النفري قد وضع شروط الإقبال إلى الله، فالإقبال إلى الله يلزمه المسارعة إلى طاعته، وإذا حدث اللقاء لا بد من الالتزام بآداب الاجتماع، وأول هذه الآداب هو الدعاء، الذي يضمن حدوث التواصل في حالات الوجد الصوفية، وبعد الإقبال والاجتماع، والدعاء، يقوم المولى عز وجل بالنظر في حالات المقبلين عليه، " وقال لي من إقبالي عليك أني أريدك، بأن تريدني؛ لتثبت في الإقبال عليّ، واشهدني أريدك بأن تريدني؛ فتدوم بي وتنقطع عن"([2]) الإقبال يعني الرغبة المتبادلة في الاجتماع بين المريد وربه، فالمريد يسعى إلى ربه، والرب ينتظر إقبال العبد والمريد؛ كي يبادر بالسعي إليه؛ لتحدث الصلة التي لا تنقطع، والعلاقة الدائمة، التي يثبت فيها العبد المريد رغبته الأكيدة في الإقبال على خالقه، وسعيه الحثيث للوقوف بين يديه.

عند الإقبال والاجتماع تبدأ حالات الاختبار، ومع الاختبار في صدق الإقبال، يبدأ المولى عز وجل في تقسيم المقبلين عليه، من حيث أجناسهم " وقال لي إنما أحشرك مع أبناء جنسك، من كانوا وأين كانوا"([3]) يتبادر للذهن أن الحشر في مجموعات وفق الجنس يقصد بها النفري أصول البشر، وأممهم وأوطانهم، فالقراءة السريعة تشير إلى حشر العباد مع بعضهم البعض وفق أصولهم، وفي محل إقامتهم، لكن النفري لا يقصد هذا، بل المعنى عنده أكثر عمقًا، وأكثر كثافة ورمزية؛ لذلك يردف النص السابق بنص آخر توضيحي يكشف عن مقصوده الحقيقي الذي يؤكد العلو في حالات الوجد والتواصل الإلهي " وقال لي أبناء جنسك أبناء شهوتك أو تركك، وليس أبناء عملك أو معرفتك"([4]) يكشف النفري عن مقصوده الصوفي الذي يؤكد أن الله عز وجل يجمعنا وفق أعمالنا، قربنا منه، طاعتنا له، فمن كان ابن الشهوة والمعصية جمعه الله مع أبناء جنسه من أبناء الشهوة والمعصية، ومن كان من أبناء ترك الشهوة والتمسك بطاعة الله، والخلاص من كل ما يعيق حالات الإقبال، جمعه الله مع أبناء جنسه من هؤلاء، فالجنس الذي يقصده النفري ليس الإخوة في

[1]) المرجع السابق، ص: ١٢٨
[2]) السابق، ص: ١٢٨
[3]) السابق، ص: ١٢٨
[4]) السابق، ص: ١٢٨

الدنيا، ولا رابطة الدم والقربى، والمعاملة، إنما روابط طاعة الله والإقبال عليه، أو روابط الإقبال على الشهوات، وكأننا في مفهوم النفري أمام حالتي إقبال الأولى إقبال إلى الله بقلب مخلص، وعمل صالح، وروح منقطعة لله عز وجل، والثانية إقبال إلى الشهوة التي تقود صاحبها إلى المعصية والقطيعة بين العبد وربه، وفي هذا المعنى يقترب مفهوم الإقبال والجنس من معنى الآية الكريمة " **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ" آل عمران) ١١٠)**

فالأمة هنا في الآية الكريمة هي أمة العمل والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، فلقد صاروا وفق أعمالهم أمة واحدة، تجمعهم الطاعة والإيمان بالله، وتقسمهم كذلك، فمن لم يطع الله، ويؤمن به، كان في أمة أخرى، غير تلك الأمة، فكلمة الجنس عند النفري توزاي كلمة الأمة في الآية الكريمة، فالجنس الواحد، والأمة الواحد هي أمة الإيمان بالله، والطاعة، والعمل الصالح، أو أمة الشهوة وأمة الفسق، " وقال لي أبناء همك جمع ويفترقون بالشهوات، أبناء علمك جمع ويفترقون بالشهوات، أبناء عملك جمع ويفترقون بالشهوات، أبناء شهوتك جمع ويفترقون بالترك، والتاركون أبناء ما من أجله تركوا، والآخذون أبناء ما من أجله أخذوا"([1])

وفي النهاية وعقب تلك المراحل أو الشروط التي كشف عنها النفري؛ كي تحدث عملية الإقبال يؤكد أن نجاح موقف الإقبال مرهون بالعمل " وقال لي إن لم يصعد عملك من الباب الذي نزل منه علمك، لم يصل إلي"([2]) فلا بد أن يكون عمل المريد بقدر علمه الذي وهبه الله له؛ حتى يحظى بموقف الإقبال وحالاته الصوفية، " يا عبد أخلصتك لنفسي فإن أردت أن يعلم بك سواي فقد أشركت بي، أنا ربك الذي سوّاك لنفسه، واصطفاك لمحادثته، وأشهدك مقام كل شيء منه؛ لتعلم أن لا مقام لك في شيء من دونه، إنما مقامك رؤيته وإنما إفرادك حضرته"([3])

فالإقبال على الله والمثول بين يديه، يستوجب المخاطبة أو المناجاة الصادقة، التي تؤكد إخلاص العبد لربه، وطاعته المطلقة له، التي تؤكد كذلك أنه لم يقع في خطيئة الشرك به.

---

[1]) السابق، ص: ١٢٩
[2]) السابق، ص: ١٢٩
[3]) السابق، ص: ١٤٥

موقف الدلالة

للمتصوفة لغة خاصة، وفكر خاص، فالمعروف عن المتصوفة " أنهم يشعرون أن اللغة غير كافية، أو أنها لا غناء فيها تمامًا، كوسيلة لنقل تجاربهم أو استبصاراتهم إلى الآخرين؛ ولهذا نراهم يقولون إن ما يمرون به لا يمكن وصفه ولا التفوه به، صحيح أنهم يستخدمون اللغة؛ لكنهم يعلنون عندئذ أن الكلمات التي يستخدمونها لا تقول ما يرغبون في قوله، وأن جميع الكلمات بما هي كذلك عاجزة عن أن تفعل ذلك، فالوعي الموحد " يجاوز كل تعبير، وعند أفلوطين فإن الرؤية تعوق الأنبياء"([1])؛ لذلك يتجهون إلى اللغة الإشارية الرمزية، اللغة التي يعبرون بها عما يقصدون، يفهمونها، ولا يفهمها سواهم، إلا بعد اللجوء للتأويل؛ لأن اللغة مهما بلغت من تكامل لا تستطيع أن تعبر عن حالات الصوفية ومدارجهم، والكشف الذي يقولون به، أو يؤمنون به، وتميز النفري بلغته العميقة، شديدة الغموض، الرامزة التي وظف فيها الإشارة والرمز للتعبير عما يريد؛ لذلك يقف نص النفري بوصفه نصًا شديد العمق، كثيف الدلالة، يحتاج لتحليل لغوي بلاغي فلسفي للوقوف على مقصوده الصوفي.

وفي موقف الدلالة للنفري تقف اللغة الرامزة لتلقي بظلال الغموض والتكثيف الدلالي على نصوصه، التي تحتاج للتأويل الفلسفي؛ لنفهم ما يقول أو ما يريد أن يخبر به " وقال لى: المعرفة بَلاَءُ الخلق خصوصه وعمومه وفى الجهل نجاة الخلق خصوصه وعمومه"([2]) يأتي نص النفري أو موقف دلالته محملًا بالكثافة الصوفية، التي تؤكد أن المعرفة بلاء على صاحبها إن وقفت حاجبًا أو مانعًا تمنع معرفة الله وقدرته، وتمنع من التعمق في عبادته، والتدرج في معارج الروحانية للوصول إلى نوره، فالمعرفة كما نرى في عصرنا الحديث قد تقف مانعًا بين الإنسان والدين، بين الإنسان وربه؛ لأنه من خلال معرفته يريد أن يخضع كل شيء للمعرفة المادية، التي قادته لتملك العالم، ونسي الإنسان أن الغيب، لعب جزءًا كبيرًا في وجوده ونجاحاته العلمية، ومع هذا النسيان، أو المعرفة المادية قد تحدث القطيعة بين الإنسان وربه؛ لذلك يرى النفري أن المعرفة بلاء، وأن الجهل نجاة الخلق، والجهل الذي يقصده النفري ليس الجهل الذي هو ضد العلم أو المعرفة، إنما الجهل بالمادية التي تسرق الإنسان من نورانيته، وتجحب عنه رؤية الحق الخالق، فالجهل

[1]) والتر ستيس، التصوف والفلسفة، تر، إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م، ص: ٣٣٧
[2]) محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات ، ص: ٦٧

المقصود هو الجهل الذي يدفع الصوفي إلى التعمق في إيمانه الروحاني، إلى التمسك برحلة الكشف النوراني للمولى عز وجل، إلى المزيد من الوعي، والإبداع بالفكر والعقل.

" وقال لي معرفة لا جهل فيها لا تبدو، جهل لا معرفة فيه لا يبدو"([1]) يبدو للبعض أن النص يتنافى مع الواقع، أو يحض على الجهل ونبذ العلم ومعاداته؛ لكنه في الحقيقة ينادي بالعلم والإبداع، مع التمسك بالجهل بالماديات التي تهمين على النفس البشرية، إذا ما تمسك بالعلم فقط، فالعلم والمعرفة لا بد أن يقابلهما حضور الغيب المقدس، فلكل علم ومعرفة جانب مظلم، لا يستطيع العلم تأويله أو تفسيره؛ لأنه يتعلق بالعلم الرباني أو المعرفة الربانية التي يقف العقل أمامها حائرًا ومن هنا يأتي البلاء؛ لأن المعرفة في تلك اللحظة تقوده للبلاء أو اللاإيمان.

" وقال لي إذا عرفت من تسمع منه، عرفت ما تسمع"([2]) المعرفة الحقة أو العلم هو الذي يقود إلى معرفة الخالق، والعلم بدقائق الكون، وروح الله السارية في كل مخلوق في هذا الكون، فالذي يهب الإنسان العلم والمعرفة، ويقوده إلى كل ما يتحقق له هو الله، والعالم الفعلي هو الذي يبصر قدرة الله فيما يصل إليه، ويعرف أن الله هو الذي يقودنا إلى الكشف العلمي والروحي.

"يا عبد إن لم أنشر عليك مرحمة الرحمانية لطوتك يد الحدثان عن المعرفة"([3]) تؤكد تلك المخاطبة موقف النفري في الدلالة، فلو لم ينشر الله نور معرفته الفعلية على عبده؛ لصار علمه ومعرفته نقمة عليه، " يا عبد إن لم أسقك برأفتي عليك أكواب تعرفي إليك أظمأك مشرب كل علم، وأحالتك برقة كل خاطر"([4])

[1]) المرجع السابق، ص: ٦٧
[2]) السابق، ص: ٦٧
[3]) السابق، ص: ١٤٥
[4]) السابق، ص: ١٤٥

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة قراءة الفكر الصوفي الفلسفي في كتاب النفري " المواقف والمخاطبات " ؛ لكنّها لم تقف أمام كل جوانب فكر النفري، بل قامت بعملية انتخاب فكري لرؤية النفري الصوفية، بهدف الوقوف أمام رؤيته الفلسفية الصوفية، وهل تتوافق مع بعض الأفكار الصوفية التي لاقت معارضة من قبل علماء الدين، أم أنها جاءت متوافقة مع الاعتقاد الديني في مجمله؟ وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها:

- لم يخالف النفري المعتقد الإسلامي، وجاءت أفكاره عبارة عن تعبير رمزي عن حالات وجده التي تتوافق مع القرآن الكريم.
- ظهر تصوف النفري تصوفًا معتدلًا لم يعرف الشطط الفكري الذي تميز به البعض.
- لم يقل النفري بمفهوم الحلول والاتحاد.
- جاء التصوف عند النفري تصوفًا قلبيًا قائمًا على التخلي عن متع الدنيا، والسعي الحثيث في العبادة من أجل الانتصار على النفس الأمارة بالسوء
- كان للقلب مكانة كبرى في تصوف النفري، فكان هو موطن الإيمان والكشف والتجلي الإلهي.
- تميزت لغة النفري بالثراء الرمزي والكثافة والإيجاز والدقة، والفصاحة؛ لذلك يعد بعض كتاب النفري من أهم النصوص الأدبية الفصيحة التي عبرت عن حالات الوجد الصوفي.
- انتهت الدراسة إلى أن كتاب المواقف والمخاطبات هو كتاب صوفي رمزي كتب بلغة أدبية،

المصادر

- محمد بن عبد الجبار الحسن النفري، المواقف والمخاطبات، تح، أرثر يوحنا أبري، مكتبة المتنبي، القاهرة.

والمراجع

- إبراهيم إبراهيم محمد ياسين، دلالات المصطلح في التصوف الفلسفي، دار المعارف، ١٩٩٩م.
- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج٢، دار الكتب العلمية الحديثة، بيروت
- أبو طالب المكي، قوت القلوب، ج ٢، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٤٢٦ هـ –٢٠٠٥ م
- أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- جمال المرزوقي، فلسفة التصوف عند محمد بن عبد الجبار النفري،دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٩م.
- حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م
- ربيعة بنويس، مصطلحات صوفية في الميزان، الفناء، الحلول، الاتحاد، القطب، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة بن طفيل، ع ٩، ٢٠٠٨م.
- عبد العزيز الكاشاني، معجم اصطلاحات الصوفية، تح، د. عبد العال شاهين، دار المنار، ط١، ١٩٩٢م.
- العدلوني الإدريس ي محمد. مدرسة ابن عربي الصوفية ومذهبه في الوحدة. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء. الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- الغزالي، الإحياء، ج٤، دار الكتب العصرية، بيروت، ط٥.
- القشيري، الرسالة القشيرية، دار الجيل، بيروت، ط٢.
- مجموعة مؤلفين، نصوص صوفية غير منشورة، تح، بولس نويا اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
- محمد ولد اباه، مدخل إلى أصول الدين، كتاب دعوة الحق" العدد الثاني، ط١، ١٩٩٩م.
- نيفين إبراهيم ياسين، ميتافيزيقا الخطاب الرمزي في التصوف الإسلامي، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، ع ٦١، ٢٠١٧م.
- والتر ستيس، التصوف والفلسفة، تر، إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩م.